الغايات — ٣

فالغايات المحمودة ماخالطها دين يكف النفس عن البهتان ، ويغسل الحس من الادران. يرجها فيحسن وجهها ، ويقودها فيوق قيادتها . ويكون نبراسها الذي لاتتعثر وراءه مهما طال طريقها واشتد ريقها ، وتنازعتها العقبات ، وقامت حولها الشبهات . وهي غايات دينية عمادها الدين وكل مايصدر عنها لايتعدى دائرته ، ولا يجاوز طريقته . فامتزاج الدين بالروح قوة تنفذ بنورها إلى كل ماحوته الطبيعة ، لاترتد دون وقوف على حقيقة ، ولا تعجز عن غامض الاسرار . ومن غير الله يصير بعباده ، يرى علاجهم ، ويقدر الأدواء لهم . وإن وصاله السماء لهدى ونور يحكم بها النبيون فيضربون للناس الأمثال ويرسمون لهم طريق الرشد للعاش والمعاد حتى لاينسى أحد نصيبه من الدنيا والآخرة. ولا بدع أن أقول لك أن الانقلابات العالمية من يوم خلق الله الكرة لم تكن إلا وليدة هذه الغايات . وأي انقلاب أخطر من أن يقوم دين آخر فيصبغ النفوس بصبغة لاعهد لها بها ، ويوردها سبيلا لم تتعلق من قبل بآدابها .ويقتحم الالباب بجديد مألفته ، ليقضي به على الباب من قديم عرفته .

على أنه لولا انقطاع تيار الغايات الدينية لحكمة نظامية وتوالي الفترات بين دين ودين لما تحدث التاريخ عن إفراد كل ماله عن الواحد منهم إنه فتح حصنا أو هزم جيشا أو سارت أمته به وعلى سياسته حينا من الدهر ماأقام الدين صرحا ، ولاشيد للأخلاق بناء .

والغايات الدينية من عقل المرء مهبط لايزاحم إليه ملوم ولا يداخله موهوم إلا أخذ قوة العقيدة فلا تثيره الشؤون، ولا تحجبه السنون . ومثبت هذه الغايات في النفس الاقتناع بحامية الدين ، وانتصار صوت الله دائما في كل الأمور . وما التصق الدين بشيء إلا زانه ، ولا نزع من شيء إلا شانه ،ولا نشر ظله على ملك إلا كساه بثوب الطاووس ، وصيره نزهة للنفوس ، وأسبغ عليه الهيبة ، ووقاه من النكبة ويقول قائل « الدين بالعقل يقوى والملك بالدين يبقى ».

واعلم أن الغايات الدينية لايعرف صاحبها الخوف ، ولا تخاف السيف ، ولا يجبن أمام غول الغوائل، ولا يقعده بياض الحوائل فهي فيه على قدر عقله وآماله . وعندي لك مثل أعلى لهذه الغايات واستقرارها، وانتصارها ذلك هو محمد بن عبد الله الذي نشأ بين قوم لا تابين لهم فتاة ، ولا تنزع لهم صفاة ، جاهليتهم ضلال وعربيتهم انحلال يعبدون الأصنام ويستقسمون بالأزلام يأكلون الميتة ، ويدسون أفلاذ أكبادهم في التراب ،لادين العرب إلا لحيهم ، ولا

يمرح الطغيان إلا فى نفوسهم . فخلق منهم خلقا آخر يجيب داعيه ، ويقدر مساعيه يفتديه بالأب والأم والولد ، والمال والعم والسيد والقيد . وما كان المال للأنصار كيلا ، ولا حال الأوسمة على المهاجرين هيلا . ولكن استقر فى نفسه ووقر فى قلبه مكارم خلق بعثتها فطرته الدينية قد لقومه جبلها ، وضرب لاجتماعهم مثلها ، فسارعوا إليها وتكالبوا عليها قتل عروشا كانت تكتنفه ، وجاء لهم كل جبار وفى الرغام أنفه . ثم انظر كيف قفى على آثاره من وردهم حب هذه الغايات ومزجها بدمائهم فحفظوا بضاعته وحموا للإسلام بيضته . فها هو أبو بكر يقول للعرب أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم» وها هو عمر جنبت زوجه من وظيفته خمسة دراهم لتشترى بها حلوى فلم يرض إلا أن ترد إلى بيت مال المسلمين وقد درى الذيل إذ يقول فى ذلك :

وأقبلت بعد خمس وهى حاملة ... درجهات لتقضى من تشهيها
فقال نبهت منى غافلا قدمى ... هذى الدراهم إذ لا حق لى فيها
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به ... أولى نقوى لبيت المال رديها
ويل على عمر يرضى بموقبة ... على الكفاف وينهى مستزيديها

وها هو على بن أبى طالب يرد «عقيلا» أخاه صفر اليدين وكان قد سأله صاعا يرا من بيت مال المسلمين لأبنائه وجم غير الألوان شعث النواصى من فقرهم ثم قرب منه حديدة حماها فى النار فضج ضجيج ذى دنف من ألمها : فقال على ثكلتك الثوا كل ياعقيل أتخاف حديدة أحماها إنسانها لدبه وتقدمنى لنار سخرها الجبار لغضبه . أتئن من الأذى ولا أئن من لظى ؟ وإنه لقائل «وإن دنياكم عندى لأهون من جلب شعيرة فى فم جرادة تقضمها» وها هم غيرهم ومن نهجوا طريقهم هل رأيت أو سمعت أو قرأت مالا يشرح الصدور ويرضى الرايا إلى أقصى درجات الرضا ، ويرفع راية المجد إلى آخر حدود الارتفاع ؟ فتلك من غايات لا تترك معوجا إلا أقامته ، ولا موضوما إلا أنصفته ، ولا خيرا إلا أبرزته ، وبها تسامى الأمم السماء ويرتفع مكانها فوق الجوزاء وموعدنا المقال التالى

عبد الفتاح السيد

(خيال الدنيا)